شرح الأربعين النووية

الحديث السابع والعشرون

كُلُّ سُلامَى مِنَ النَّاسِ عَلَيْهِ صَدَقَةٌ

اللقاء الثلاثون

الحديث السابع والعشرون:

عن النواس بن سمعان رضي الله عنهما، عن النبي-ﷺ- قال: ((البِرُّ حُسْنُ الخُلُقِ، وَالإِثْمُ ما حَاكَ في نَفْسِكَ، وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عليه النَّاسُ)) رواه مسلم.

وعن وابصة بن معبد رضى الله عنه، قال: أتيتُ رسولَ اللهِ -ﷺ- فقال: جئتَ تسألُ عن البرّ والإثمِ؟ قال: نعم، فقال: استفتِ قلبكَ: البرُّ ما اطمأنتْ إليهِ النفسُ، واطمأنَ إليهِ القلبُ، والإثمُ ما حاكَ في النفسِ وترددَ في الصدرِ، وإن أفتاكَ الناسُ وأفتوكَ)).

قال الشيخ - رحمه الله - حديث حسن، رويناه في مسندي الإمام أحمد بن حنبل، والدارمي بإسناد حسن.

ترجمة الراوي:

النواس بن سمعان بن خالد بن عبد الله بن أبي بكر الكلابي، معدود من الشاميين، يقال: إن أباه سمعان بن خالد وفد على النبي -ﷺ-، فدعا له رسول الله -ﷺ-، وأعطاه سمعانُ نعليه، فقبِلهما رسولُ الله -ﷺ-، وتزوج أخته، فلما دخلت على النبي تعوذت منه، فتركها، وهي الكلابية؛ قاله ابن عبد البر.

وروى عن النواس بن سمعان: جبير بن نفير، ونفير بن عبد الله، وجماعة، وقال أبو حاتم الرازي وأبو أحمد العسكري: إن النواس سكن الشام.

2 – وابصة بن معبد بن مالك بن عبيد الأسدي، من أسد بن خزيمة، يكنى أبا سالم؛ قاله ابن الأثير، وقال: له صحبة، سكن الكوفة، ثم تحول إلى الرَّقَّة، فأقام بها إلى أن مات، وكان كثير البكاء لا يملك دمعته، وكان له بالرَّقَّة عَقِبٌ.

⇦توفي وابصة بالرقة، وقبره عند منارة المسجد الجامع بالرافقة.

منزلة الحديث:

هذا الحديث من جوامع كلمه عليه الصلاة والسلام، وعليه مدار الإسلام؛ لأنه يبحث في أمرين عظيمين، الأول: عن الخلق الحسن، والثاني: عن الخلق السيئ. [أسد الغابة الاستيعاب في معرفة الأصحاب].

قال ابن حجر الهيتمي رحمه الله: هذا الحديث من جوامع كلمه –ﷺ–، بل من أوجزها؛ إذ البر كلمة جامعة لجميع أفعال الخير، وخصال المعروف، والإثم كلمة جامعة لجميع أفعال الشر والقبائح كبيرها وصغيرها. [أسد الغابة تهذيب التهذيب].

قال الفشني رحمه الله: هذا الحديث من جوامع الكلم التي أوتيها –ﷺ–، وهو في الحقيقة حديثان، لكنهما لما تواردا على أمر واحد كانا كالحديث الواحد، فجعل الثاني كالشاهد للأول [المجالس السنية].

• قال المناوي رحمه الله: وذا من جوامع الكلم؛ لأن البر كلمة جامعة لكل خير، والإثم جامع للشر [فيض القدير].

شرح الحديث:

((البِرُّ)) اسم جامع لأنواع الخير، وكل فعل مرضي.

((حُسْنُ الخُلُقِ))؛ أي: التخلُّق مع الخَلْق؛ بطلاقة الوجه، وكف الأذى، وبذل الندى، وقلة الغضب، وأن يحب للناس ما يحب لنفسه، قال ابن دقيق العيد: البر حسن الخلق، يعني أن حسن الخلق أعظم خصال البر.

((وَالإِثْمُ))؛ أي: الذنب ((ما حَاكَ في نَفْسِكَ))؛ أي: تردد وتحرك، وهو ما وقع في القلب ولم ينشرح له الصدر، ويخاف فيه الإثم.

قال النووي رحمه الله: هو ما اختلج وتردد ولم تطمئن النفس إلى فعله.

❁((وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عليه النَّاسُ))؛ أي: عظماؤهم وما داناهم، لا رعاؤهم، كما فهم من أداة التعريف، ووجهه أن النفس مجبولة على محبة اطلاع الناس على خيرها، وكراهية اطلاعهم على شرها، ولم يزل ذلك ظاهرًا معروفًا.

❁((البِرُّ))؛ أي: الحلال ❁((ما اطمأنَّتْ))؛ أي: سكنت ❁((إليه النَّفْسُ واطمأنَّ إليه القلبُ))؛ لأن طمأنينة القلب من طمأنينة النفس، ❁((والإثمُ ما حاك في النَّفسِ))؛ أي: أثَّر فيها ❁((وتردَّدَ في الصَّدرِ)) يعني في القلب ❁((وإن أفتاك الناسُ))، وفي رواية: وإن أفتاك المفتون، ❁((وأَفْتَوْك))؛ أي: حتى لو أفتاك مُفْتٍ بأن هذا جائز، ولكن نفسك لم تطمئن ولم تنشرح له فدَعْهُ.

تكمن عظمة هذا الدين الاسلامي في تشريعاته الدقيقة، والتي تنظم حياة الناس، وتعالج مشكلاتهم، ومن طبيعة هذا المنهج الرباني أنه يشتمل على قواعد وأسس، تحدد موقف الناس تجاه كل ما هو موجود في الحياة، فمن جهة: أباح الله للناس الطيبات، وعرفهم بكل ما هو خير لهم، وفي المقابل: حرّم عليهم الخبائث، ونهاهم عن الاقتراب منها، وجعل لهم من الخير ما يغنيهم عن الحرام.

وإذا كان الله تعالى قد أمر عباده المؤمنين باتباع الشريعة والتزام أحكامها، فإن أول هذا الطريق ولبّه: تمييز ما يحبه الله من غيره، ومعرفة المعيار الدقيق الواضح في ذلك.

وفي الحديثين المتقدمين، ما يبين ذلك ويدعو إليه: فقوله -ﷺ-: (الْبِرُّ: حُسْنُ الْخُلُقِ): فالبر: هي لفظة جامعة ينطوي تحتها كل أفعال الخير وخصاله، فقال العلماء: البر قد يكون بمعنى الصلة، وقد يكون بمعنى اللطف والمبرة وحسن الصحبة والعشرة، وبمعنى الطاعة، وهذه الأمور هي مجامع الخلق.

وقال ابن دقيق العيد: (أمَّا البِرُّ فهو الَّذي يُبِرُّ فاعلَه، ويلحقه بالأبرار، وهم المطيعون لله عزَّ وجلَّ، والمراد بحسن الخلق: الإنصاف في المعاملة، والرِّفق في المحاولة، والعدل في الأحكام، والبذل في الإحسان، وغير ذلك من صفات المؤمنين).

وقد فسَّره رسول الله -ﷺ- في موضع (بما اطمأنَّت إليه النَّفس، واطمأنَّ إليه القلب).

فالْبِرُّ هو الخير، وضده الإثم، وقد فسره النبي -ﷺ- بـ(حُسْنُ الْخُلُقِ) وإن كان البر يشمل حسن الخلق وغيره، ولكن المراد أن حسن الخلق هو أعظم خصال البر، واعلموا أن البر يكون مع الخالق ومع الخلق:

فأما البر مع الخالق فهو يشمل جميع أنواع الطاعات الظاهرة والباطنة ، كما قال الله تعالى في كتابه العزيز (لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ) [البقرة:177] ، فالبر الذي بين العبد وبين ربه -جل وعلا- هو بالإيمان، وإتيان أوامر الله -جل وعلا- المختلفة، وامتثال الأمر، واجتناب النهي ، ويُطلق على العبد بأنه من الأبرار إذا امتثل تلك الأوامر ، ووقف عند حدود الله وشرعه .

ومن البر مع الخالق سبحانه وتعالى: حسن الخلق مع الله في أحكامه القدرية، في استقبالها بالصبر والرضا، فالإنسان ليس دائما مسروراً، حيث يأتيه ما يحزنه في ماله أو في أهله أو في نفسه أو في مجتمعه، والذي قدر ذلك هو الله عز وجل، فتكون أيها المؤمن حسن الخلق مع الله، وتقوم بما أمرت به وتنزجر عما نهيت عنه.

وأما البرّ مع الخَلْق إنما يكون بالإحسان في معاملتهم، وذلك قوله: (البرّ حسن الخلق)، وحسن الخلق هو بذل الندى، وكف الأذى، والعفو عن المسيء، والتواصل معهم بالمعروف، كما قال ابن عمر رضي الله عنه:" البرّ شيء هيّن: وجه طليق، وكلام ليّن".

والبر مع الخلق أوله بر الوالدين، بل وبر أصدقائهم من بعدهم، ففي الصحيحين: (قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ – رضى الله عنه – سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ -ﷺ- قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ الْعَمَلِ أَفْضَلُ قَالَ «الصَّلاَةُ عَلَى مِيقَاتِهَا». قُلْتُ ثُمَّ أَيٌّ. قَالَ «ثُمَّ بِرُّ الْوَالِدَيْنِ».

"جَاءَ رَجُلٌ إلى رَسولِ اللَّهِ -ﷺ- فَقالَ: يا رَسولَ اللَّهِ، مَن أحَقُّ النَّاسِ بحُسْنِ صَحَابَتِي؟ قالَ: أُمُّكَ، قالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قالَ: ثُمَّ أُمُّكَ، قالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قالَ: ثُمَّ أُمُّكَ، قالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قالَ: ثُمَّ أبُوكَ". صحيح البخاري

وقد سمي بر الوالدين برا حتى يجتهد المكلف في جلب أنواع الأعمال التي تسرهم، ويحسن بها إليهم، من أقوال وأفعال، وكذلك الإحسان إليهم بنفقة ونحوها.

وفي صحيح مسلم أنه -ﷺ- يقُولُ "إِنَّ مِنْ أَبَرِّ الْبِرِّ صِلَةَ الرَّجُلِ أَهْلَ وُدِّ أَبِيهِ بَعْدَ أَنْ يُوَلِّيَ".

قال رسول الله -ﷺ-: "إنَّ اللَّهَ يوصِيكم بِأُمَّهَاتِكُمْ ثُمَّ يوصِيكم بِأُمَّهَاتِكُمْ ثُمَّ يوصِيكم بِآبَائِكُمْ ثُمَّ يوصِيكم بِالْأَقْرَبِ فَالْأَقْرَبِ" صحيح الأدب المفرد

قال رسول الله -ﷺ-: "إنَّ اللَّهَ خَلَقَ الخَلْقَ، حتَّى إذا فَرَغَ مِن خَلْقِهِ، قالتِ الرَّحِمُ: هذا مَقامُ العائِذِ بكَ مِنَ القَطِيعَةِ، قالَ: نَعَمْ، أما تَرْضَيْنَ أنْ أصِلَ مَن وصَلَكِ، وأَقْطَعَ مَن قَطَعَكِ؟ قالَتْ: بَلَى يا رَبِّ". صحيح البخاري

قال رسول الله -ﷺ-: "يا أيُّها النَّاسُ أفشوا السَّلامَ، وأطعِموا الطَّعامَ، وصِلوا الأرحامَ، وصلُّوا باللَّيلِ، والنَّاسُ نيامٌ، تدخلوا الجنَّةَ بسَلامٍ" صحيح ابن ماجه.

والبر، أمر فعلي، وأمر قولي، ومن صوره، طلاقة الوجه والابتسامة في وجه أخيك المسلم ففي صحيح مسلم يقول -ﷺ-: «لاَ تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ» وفي سنن الترمذي، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- «تَبَسُّمُكَ فِي وَجْهِ أَخِيكَ لَكَ صَدَقَةٌ» فإدخال السرور في نفس أخيك، تتقرب إلى الله بذلك، هذا من أعظم الحسنات.

وعَنْ ثَوْبَانَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ-: «لاَ يَزِيدُ فِي الْعُمْرِ إِلاَّ الْبِرُّ وَلاَ يَرُدُّ الْقَدَرَ إِلاَّ الدُّعَاءُ وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيُحْرَمُ الرِّزْقَ لِلْخَطِيئَةِ يَعْمَلُهَا»، رواه ابن ماجة.

وفي الصحيحين عَنْ عَبْدِ اللَّهِ – رضى الله عنه – عَنِ النَّبِيِّ -ﷺ- قَالَ: «إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِى إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِى إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يَكُونَ صِدِّيقًا» صحيح البخاري

وعنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ-: "إِنَّ اللَّهَ لِيُبَلِّغُ الْعَبْدَ بِحُسْنِ الْخُلُقِ دَرَجَةَ الصَّوْمِ وَالصَّلاةِ" (رواه الطبراني بالكبير وهو حديث حسن).

⇦ قوله -ﷺ-: (الْبِرُّ: حُسْنُ الْخُلُقِ)، فحُسن الخُلُق منه فِطْرِيٌّ جِبِلّي، عبارة عن هبة وهبها الله للإنسان، ومنه ما هو مكتسب يكتسبه الإنسان بالتعلم والدربة عليه حتى يصبح ملازمًا له في كل شؤونه.

أما الذي يكون بالفطرة: بأن يولد الإنسان حليمًا كريمًا حسن الأخلاق، وإلى ذلك جاءت الإشارة في حديث الأشج بن عبد القيس لما قال له النبي -ﷺ-: (إن فيكَ خَصلَتَينِ يُحِبُّهُما اللهُ وَرَسُولُه: الحِلْمُ والأَنَاةُ)، قال: يا رسولَ الله، أَتَخَلَّقتُ بهما أم جُبلتُ عليهما؟ قال: (بل اللهُ جبلك

عليهما)، قال: الحمد لله الذي جَبَلَني على خَلَّتَيْنِ يحبُّهما اللهُ ورسولُه) رَوَاهُ أبو داود، وأحمد، وصححه الألباني.

وأما الذي بالاكتساب: فألا يولد كذلك، ولكنه يروض نفسه على اكتساب مكارم الأخلاق، فقد جاء رجل إلى النبي –ﷺ– فقال يا رسول الله أوصني، فقال: (لاَ تَغْضَبْ) فَرَدَّدَ مِرَارًا، قَالَ: (لاَ تَغْضَبْ) رَوَاهُ البخاري، وهذا يدل على أن اكتساب صفة الحلم وعدم الغضب أمر مستطاع، وإلا لما أمر به النبي –ﷺ– مرارًا، ومثله سائر مكارم الأخلاق، فمن لم يجبل عليها يتكلفها حتى تصبح خلقًا له.

قال–ﷺ–: «إِنَّما العلمُ بِالتَّعَلُّمِ، وإِنَّما الحِلْمُ بِالتَّحَلُّمِ» صحيح الجامع

لا شك أن تصرفاتنا وسلوكياتنا وخصالنا التي تظهر أمام الناس جميعًا هي نتاج لما انصهر في بوتقة الأخلاق، التي هي الباعث والمحرك الأساس لما يصدر عنا من أقوال وأفعال في حياتنا الخاصة والعامة.

وإن الأخلاق الحسنة في دين الإسلام عظيم شأنها، عالية مكانتها، ولذلك دعا المسلمين إلى التحلي بها وتنميتها في نفوسهم، وهي أحد الأصول الأربعة التي يقوم عليها دين الإسلام وهي: الإيمان والأخلاق، والعبادات، والمعاملات، ولذا نالت العناية الفائقة الكبرى والمنزلة العالية الرفيعة في كتاب الله عز وجل وسنة رسوله.

بل إن الأخلاق الكريمة تدعو إليها الفطر السليمة، والعقلاء يجمعون على أن الصدق والوفاء بالعهد والجود والصبر والشجاعة وبذل المعروف أخلاق فاضلة يستحق صاحبها التكريم والثناء، وأن الكذب والغدر والجبن والبخل أخلاق سيئة يذم صاحبها.

والدعوة إلى توحيد الله عز وجل وإخلاص العمل له وإلى دينه تحتاج إلى الأخلاق الحميدة، والصفات الحسنة، ويصعب توفر تلك الأخلاق فيمن يفقد الإيمان والتقوى، ولذا فيجب علينا أن نقتدي بالنبي –ﷺ– في كل شؤونه ومن ذلك حسن الخلق.

وخير قدوة بحسن خلقه وكريم تعامله، ونحن من مشكاته نقتبس وبهديه نهتدي سيد المرسلين–ﷺ–، شهد له –ﷺ– بحسن الخلق القريب منه والبعيد، والعدو والصديق، ولم يتمالك سيد بني حنيفة في زمنه ثمامة بن أثال –رضي الله عنه– من الاعتراف بفضله، والشهادة بحسن خلقه، مشركاً محارباً، حتى أسلم ثم أعلن له إعجابه بشخصه وبدينه حين قال: "يا محمد والله ما

كان على وجه الأرض وجه أبغض إليَّ من وجهك، وقد أصبح وجهك الآن أحب الوجوه إلي، والله ما كان على وجه الأرض دين أبغض إليَّ من دينك، وقد أصبح دينك الآن أحب الأديان إليَّ..." إلخ كلامه -رضي الله عنه-.

وفي صحيح مسلم (عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- أَحْسَنَ النَّاسِ خُلُقًا فَرُبَّمَا تَحْضُرُ الصَّلاَةُ وَهُوَ فِي بَيْتِنَا فَيَأْمُرُ بِالْبِسَاطِ الَّذِى تَحْتَهُ فَيُكْنَسُ ثُمَّ يُنْضَحُ ثُمَّ يَؤُمُّ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ-وَنَقُومُ خَلْفَهُ فَيُصَلِّى بِنَا وَكَانَ بِسَاطُهُمْ مِنْ جَرِيدِ النَّخْلِ).

قال أنس -رضي الله عنه-: "خدمت رسول الله -ﷺ- عشر سنين، والله ما قال لي أف قط ولا قال لي لشيء لم فعلت كذا وهلا فعلت كذا" رواه مسلم.

وفي صحيح البخاري: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو - رضى الله عنهما - قَالَ " لَمْ يَكُنِ النَّبِيُّ -ﷺ- فَاحِشًا وَلاَ مُتَفَحِّشًا وَكَانَ يَقُولُ «إِنَّ مِنْ خِيَارِكُمْ أَحْسَنَكُمْ أَخْلاَقًا».

وعَنْ عَائِشَةَ، -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا-: أَنَّ يَهُودَ أَتَوُا النَّبِيَّ -ﷺ- فَقَالُوا: السَّامُ عَلَيْكُمْ، فقال: "وعليكم".. فَقَالَتْ عَائِشَةُ: عَلَيْكُمْ، وَلَعَنَكُمُ اللَّهُ، وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ. قَالَ: «مَهْلًا يَا عَائِشَةُ، عَلَيْكِ بِالرِّفْقِ، وَإِيَّاكِ وَالعُنْفَ وَالفُحْشَ»، قَالَتْ: أَوَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا؟ قَالَ: «أَوَلَمْ تَسْمَعِي مَا قُلْتُ؟ رَدَدْتُ عَلَيْهِمْ، فَيُسْتَجَابُ لِي فِيهِمْ، وَلاَ يُسْتَجَابُ لَهُمْ فِيَّ» (رواه البخاري ومسلم).

وكان -ﷺ-على الصبيان، ويداعبهم، ويدعو لهم ويحنك صغيرهم، وربما بال أحدهم في حجره، فيأمر بالماء فيرشه على موضع البول، ولا يعنف أو يتبرم مما حدث، فعَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ، قَالَ: "صَلَّيْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ -ﷺ- صَلَاةَ الْأُولَى، ثُمَّ خَرَجَ إِلَى أَهْلِهِ وَخَرَجْتُ مَعَهُ، فَاسْتَقْبَلَهُ وِلْدَانٌ، فَجَعَلَ يَمْسَحُ خَدَّيْ أَحَدِهِمْ وَاحِدًا وَاحِدًا، قَالَ: وَأَمَّا أَنَا فَمَسَحَ خَدِّي، قَالَ: فَوَجَدْتُ لِيَدِهِ بَرْدًا أَوْ رِيحًا كَأَنَّمَا أَخْرَجَهَا مِنْ جُؤْنَةِ عَطَّارٍ" أي: سلة عطار لطيب ريحها.

وامتدح الله نبيه -ﷺ- فقال: (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) [القلم:4]، ولما سُئلت عَائِشَةُ -رضي الله عنها- عَنْ خُلُقِ رَسُولِ اللهِ -ﷺ-؟ فَقَالَتْ: "كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ" (رواه أحمد وصححه الألباني).

ولقد حدد رسول الله -ﷺ-الغاية الأولى من بعثته، والمنهج المبين في دعوته فقال: "إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ" (رواه أحمد وغيره وهو صحيح).

وعن أم الدرداء قالت: قام أبو الدرداء ليلة يصلي، فجعل يبكي ويقول: اللهم أحسنت خلقي فحسن خلقي، حتى أصبح، قلت: يا أبا الدرداء، ما كان دعاؤك منذ الليلة إلا في حسن الخلق؟

فقال: يا أم الدرداء، إن العبد المسلم يحسن خلقه، حتى يدخله حسن خلقه الجنة، ويسيء خلقه، حتى يدخله سوء خلقه النار، [قال رجلٌ: يا رَسولَ اللهِ، إنَّ فُلانةَ يُذكَرُ مِن كَثرةِ صَلاتِها وصَدقَتِها وصيامِها، غيرَ أنَّها تُؤذي جيرانَها بِلِسانِها؟ قال: هيَ في النَّارِ، قال: يا رَسولَ اللهِ، فإنَّ فُلانةَ يُذكَرُ مِن قِلَّةِ صيامِها وصَدقَتِها وصَلاتِها، وإنَّها تَتَصدَّقُ بالأَثوارِ مِن الأَقِطِ، ولا تُؤذي جيرانَها بِلِسانِها؟ قال: هيَ في الجنَّةِ] ، قال أبو الدرداء والعبد المسلم يغفر له وهو نائم، قلت : يا أبا الدرداء ، كيف يغفر له وهو نائم ؟ قال : يقوم أخوه من الليل فيجتهد فيدعو الله عز وجل فيستجيب له ، ويدعو لأخيه فيستجيب له فيه.

وقَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ: حُسْنُ الْخُلُقِ اخْتِيَارُ الْفَضَائِلِ وَتَرْكُ الرَّذَائِلِ.

حُسن الخلق عرَّفه الشيخ عبد الرحمن السعدي –رحمه الله– فقال: "هو احتمال الجنايات والعفو عن الزلات، ومقابلة السيئة بالحسنات، وقد جمع الله ذلك في آية واحدة وهي قوله: (خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ) [الأعراف:199]، أي: خذ ما عفا وصفى لك من أخلاق الناس، واغتنم ما حصل منها، وغُضَّ النظر عما تعذر تحصيله منهم، وعن نقصها وكدرها؛ ومعنى ذلك أن تشكر الناس على ما جاء منهم من الخير والإحسان؛ وما سمحت بها طباعهم من الخُلقِ الطيب؛ ولا تطلب منهم أو تطالبهم بما زاد عما حصل ولو كان لازمًا لهم فإنك بذلك تستريح وتريحهم".

ثم قال –رحمه الله–: "أما من يريد من الناس أن يكونوا كاملين مُكملين لكل ما يحب ويستحب، وإذا أخلوا بشيء من ذلك عاتبهم وأهدر ما جاء منهم من الخير والإحسان فهو عن حُسن الخلق بمعزل، ولا يزال معهم في نزاع ولجاج وعتاب؛ وإنما الحازم من يوطن نفسه على تقصير المقصرين ونقصان الناقصين".

وقال الشيخ –رحمه الله–: "أما من كان إذا جاءه من أصحابه أو معامليه ونحوهم سيئةٌ واحدة، أهدر بها ما سبقها من المحاسن، فهذا من أعظم الحُمق وقلة الوفاء وعدم الإنصاف، ومن كان بهذا الوصف فهو أبعدُ الناس من حُسن الخلق، والمقصود أن المعاملة بين المختلطين المرتبطين بحق من الحقوق إذا بُنيت على قوله: (خُذِ الْعَفْوَ) فوطَّن العبد نفسه على أخذ المنافع، والصفح عن ضده أوصلت صاحبها إلى كل خير وسَلِمَ بها من شرورٍ كثيرة، وإذا بُنيت على الاستقصاء وطلب جميع الحق مستوفى، حصل النقصُ والخلل".

وقَالَ الْأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ: أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَدْوَإِ الدَّاءِ؟ قَالُوا بَلَى. قَالَ الْخُلُقُ الدَّنِيُّ وَاللِّسَانُ الْبَذِيُّ.

وقَالَ بَعْضُ الشُّعَرَاءِ: إذَا لَمْ تَتَّسِعْ أَخْلَاقُ قَوْمٍ تَضِيقُ بِهِمْ فَسِيحَاتُ الْبِلَادِ.

إِذَا حَسُنَتْ أَخْلَاقُ الْإِنْسَانِ كَثُرَ مُصَافُوهُ، وَقَلَّ مُعَادُوهُ، فَتَسَهَّلَتْ عَلَيْهِ الْأُمُورُ الصِّعَابُ، وَلَانَتْ لَهُ الْقُلُوبُ الْغِضَابُ.

وَعَنْ أَبِي الدرداء – رضي الله عنه – قَالَ: قَالَ رَسُولُ اَللَّهِ –ﷺ-: "مَا مِنْ شَيْءٍ فِي اَلْمِيزَانِ أَثْقَلُ مِنْ حُسْنِ اَلْخُلُقِ" أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ، وعن أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: "سُئِلَ رَسُولُ اللهِ –ﷺ–عَنْ أَكْثَرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ الْجَنَّةَ...؟ فَقَالَ: "تَقْوَى اللَّهِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ...." رواه الترمذي

وقال –ﷺ-: " أنا زعيمٌ ببيتٍ في أعلى الجنةِ لمَن حَسُنَ خُلُقُه" صحيح أبي داود.

اللهم اجعلنا ممن حسُن خلقه، واكتبنا ممن هم في أعلى الجنة

قَالَ رَسُولُ اَللَّهِ –ﷺ-: (إنَّهُ مَن أُعْطِيَ حظَّهُ مِنَ الرِّفقِ، فقَدْ أُعْطِيَ حظَّهُ من خيرِ الدُّنيا والآخرةِ، وصلةُ الرَّحمِ، وحُسنُ الخُلُقِ وحُسنُ الجِوارِ، يُعمِّرانِ الدِّيارَ، ويَزيدانِ في الأعمارِ) السلسلة الصحيحة.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ –ﷺ-: " إِنَّ أَحَبَّكُمْ إِلَيَّ أَحْسَنُكُمْ أَخْلَاقًا، الْمُوَطَّئُونَ أَكْنَافًا، الَّذِينَ يَأْلَفُونَ وَيُؤْلَفُونَ" رواه أحمد والبزار ورجال أحمد رجال الصحيح

وعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ –ﷺ-: "إِنَّ مِنْ أَكْمَلِ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا وَأَلْطَفُهُمْ بِأَهْلِهِ" (رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح).

وَرُوِيَ أَيْضًا عَنْ الْفُضَيْلِ أَنَّهُ قَالَ: مَنْ سَاءَ خُلُقُهُ سَاءَ دِينُهُ، وَحَسْبُهُ مَوَدَّتُهُ.

وقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ حَقِيقَةُ حُسْنِ الْخُلُقِ بَذْلُ الْمَعْرُوفِ، وَكَفُّ الْأَذَى وَطَلَاقَةُ الْوَجْهِ.

وحُسْنُ الْخَلْقِ أَنْ يَكُونَ سَهْلَ الْعَرِيكَةِ، لَيِّنَ الْجَانِبِ، طَلِيقَ الْوَجْهِ، قَلِيلَ النُّفُورِ، طَيِّبَ الْكَلِمَةِ.

وقَالَ بَعْضُ الْبُلَغَاءِ: الْحَسَنُ الْخُلُقِ مَنْ نَفْسُهُ فِي رَاحَةٍ، وَالنَّاسُ مِنْهُ فِي سَلَامَةٍ. وَالسَّيِّئُ الْخُلُقِ النَّاسُ مِنْهُ فِي بَلَاءٍ، وَهُوَ مِنْ نَفْسِهِ فِي عَنَاءٍ.

واعلم أن كل إنسان جاهل بعيوب نفسه، فإذا جاهد نفسه أدنى مجاهدة حتى ترك فواحش المعاصي ربما يظن بنفسه أنه هذب نفسه وحسن خلقه واستغنى عن المجاهدة، فلا بد من إيضاح علامة حسن الخلق. فإن حسن الخلق هو الإيمان، وسوء الخلق هو النفاق.

ويقول ابن حبان – رحمه الله تعالى –: "الواجب على العاقل أن يتحبب إلى الناس بلزوم حسن الخلق، وترك سوء الخلق، لأن الخلق الحسن يذيب الخطايا كما تذيب الشمس الجليد، وإن الخلق السيء يفسد العمل كما يفسد الخل العسل، وقد تكون في الرجل أخلاق كثيرة صالحة كلها، وخلق سيئ، فيفسد الخلق السيئ الأخلاق الصالحة كلها".

وقد يتصور بعض الناس أن حسن الخلق محصور في الكلمة الطيبة والمعاملة الحسنة فقط، والحقيقة أن حسن الخلق أوسع من ذلك فهو يعني إضافة إلى الكلمة الطيبة والمعاملة الحسنة، التواضع وعدم التكبر ولين الجانب، ورحمة الصغير واحترام الكبير، ودوام البشر وحسن المصاحبة وسهولة الكلمة وإصلاح ذات البين والتواضع والصبر والحلم والصدق وغير ذلك من الأخلاق الحسنة والأفعال الحميدة التي حث عليها الإسلام ورغب فيها.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله "يأمرون بالصبر عند البلاء، والشكر عند الرخاء، والرضا بمر القضاء، ويدعون إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال".

ثم نأتي إلى قوله –ﷺ–: (وَالْإِثْمُ: مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ، وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ) ((والإثم))؛ أي: الذنب ((مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ))؛ أي: تردد وتحرك، وهو ما وقع في القلب ولم ينشرح له الصدر، ولم يطمئن إليه القلب ويخاف فيه الإثم.

وللإثم علامتين، كما دل على ذلك الحديث المتقدم: علامة داخلية، وعلامة خارجية، أو علامة ظاهرة وعلامة باطنة:

أما العلامة الداخلية أو الباطنية: فهي القلق والاضطراب، وعدم الطمأنينة، عند ممارسة هذا الفعل، وما يحصل له من التردد في ارتكابه، فهذا دليل على أنه إثم في الغالب، لقوله: (الْإِثْمُ: مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ).

وأما العلامة الخارجية أو علامته الظاهرية: فهي كراهة أن يطلع الناس عليه، خشية أن يذم وأن يلام على فعله.

🗐قال الشيخ ابن عثيمين: لأنه محل ذم وعيب، فتجدك مترددا فيه وتكره أن يطلع الناس عليك وهذه الجملة إنما هي لمن كان قلبه صافيا سليما، فهذا هو الذي يحوك في نفسه ما كان إثما ويكره أن يطلع عليه الناس.

⇦أما المتمردون الخارجون عن طاعة الله الذين قست قلوبهم فهؤلاء لا يبالون، بل ربما يتبجحون بفعل المنكر والإثم، فالكلام هنا ليس عاما لكل أحد بل هو خاص لمن كان قلبه سليما طاهرا نقيا.

🗈ولا بد أن يكون الباعث على هذه الكراهية هو الدين، لا مجرّد الكراهية العادية، وفي هذا المعنى يقول ابن مسعود رضي الله عنه:" ما رآه المسلمون حسنا فهو عند الله حسن، وما رأوه سيئا فهو عند الله سيئ ".

وقوله: (الْإِثْمُ: مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ) إنما هو خاص بمن شرح الله صدره للإسلام، وكان من الأتقياء، أما أهل الفجور فإن الإثم لا يحيك في صدورهم، بل ربما بعضهم يُسر به، كما قال الله تعالى: (أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا) [فاطر: 8]، فمن رأى سوء عمله حسنًا لا يمكن أن يَحِيكَ في صدره،

🗐قال ابن عثيمين: فقد يُزيَّن للإنسان سوء العمل فينشرح له صدره، مثل ما نرى من أهل الفسق الذين يشربون الخمر، وتنشرح صدورهم له، والذين يتعاملون بالربا وتنشرح صدورهم لذلك، والذين يتعودون العَهْر والزنا وتنشرح صدورهم لذلك، ولا يبالون بهذا؛ بل ربما إذا فعلوا ذلك سرًّا ذهبوا يُشيعونه ويعلنونه، مثل ما يوجد من بعض الفسَّاق إذا ذهبوا إلى البلاد الخارجية الماجنة الفاجرة ورجعوا، قاموا يتحدَّثون فعلتُ كذا وفعلتُ كذا، يعني أنهم زنوا بكذا وزنوا بكذا - والعياذ بالله - وشربوا الخمر وما أشبه ذلك.

🗈وقد خاطب النبي -ﷺ- بهذا القول رجلًا من الصحابة صالحًا مستقيمًا، يَحِيكَ الإثم في صدره ولم يخاطب به جميع الناس، فيكون إذًا قوله: (مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ) إنما هو خاص بالأتقياء والمؤمنين الصادقين، أما أهل الفجور فإن الإثم لا يحيك في صدورهم، وإن عدم كراهة اطلاع الناس على العيوب ليست من أخلاق المؤمنين، وقد قال النبي -ﷺ-: (إِذَا لَمْ تَسْتَحْيِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ) رَوَاهُ البخاري إذًا كراهة اطلاع الناس على العيوب والحياء من الناس هذه من أخلاق المؤمنين، أما إذا كان ما يستحي ولا يكره أن يطلع الناس على عيوبه، يفعل المعصية أمام الناس جهارًا نهارًا ولا يبالي هذه ليست من أخلاق المؤمنين.

إذا حاك في الصدر أن هذا الأمر إثم، وجاءت الفتوى بأنه جائز، لكن كانت تلك الفتوى غير مبنيّة على دليل واضح من الكتاب أو السنة، فإن من الورع أن يترك الإنسان هذا الأمر، وهذا هو معنى قوله -ﷺ-: (وإن أفتاك الناس وأفتوك)، أي: حتى وإن رخّصوا لك في هذا الفعل، فإن من الورع تركه لأجل ما حاك في الصدر، لكن إن كانت الفتوى بأن ذلك الأمر جائز مبنية على أدلة واضحة، فيسع الإنسان ترك هذا الأمر لأجل الورع، لكن لا يفتي هو بتحريمه، أو يلزم الناس بتركه.

وفي قوله -ﷺ- ((استفت قلبك)) قال العلماء: ولا يقال لكل إنسان: استفت قلبك، وإنما يقال ذلك لمن كان في مثل الصحابي وابصة في قوة الفهم، وصفاء النفس، وسَعة العلم، والحرص على تحري الخير، فمثله لا يرجع لفتوى رضي الله عنه، أما عامة الناس فلا يقال لأحدهم: استفت قلبك، وإنما يقال له: استفت العلماء الذين يميل قلبك إلى أمانتهم في العلم، فاسأل واعمل بفتواهم، وإن خالفت فتواهم ما في قلبك؛ لقوله تعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: 43]

فمن كان سليم القلب فإن الله -تعالى- قد يهبه فراسة يعرف بها الإثم، حتى إن نفسه لا تطمئن إليه ولا ترتاح له.

ولنعلم أن معرفة الحق من الفطرة: فإن قول النبي -ﷺ- كما في مسند أحمد «الْبِرُّ مَا سَكَنَتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ وَاطْمَأَنَّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ وَالإِثْمُ مَا لَمْ تَسْكُنْ إِلَيْهِ النَّفْسُ وَلَمْ يَطْمَئِنَّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ وَإِنْ أَفْتَاكَ الْمُفْتُونَ».

وفي ذلك دليل على أن الله سبحانه وتعالى فطر عباده على معرفة الحق والسكون إليه وقبوله، ورَكَزَ في الطباع محبته، قال -ﷺ-: "كل مولود يولد على الفطرة".

وهناك أمر دقيق بين الفتوى والتقوى: فيجب على المسلم أن يترك الفتوى إذا كانت بخلاف ما حاك في نفسه وتردد في صدره، لأن الفتوى غير التقوى والورع، ولأن المفتي ينظر للظاهر، والإنسان يعلم من نفسه ما لا يعلمه المفتي، أو أن المستنكر كان ممن شرح الله صدره، وأفتاه غيره بمجرد ظن أو ميل إلى هوى من غير دليل شرعي، فإن الفتوى لا تزيل الشبهة.

ففي حديث النعمان بن بشير في صحيح مسلم أنه -ﷺ- قال: (فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ) أما إذا كانت الفتوى مدعمة بالدليل الشرعي، فالواجب على المسلم أن يأخذ بالفتوى وأن يلتزمها، وإن لم ينشرح صدره لها، ومثال ذلك الرخصة

الشرعية، مثل الفطر في السفر والمرض، وقصر الصلاة في السفر ... وكما قال تعالى: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ} [الأحزاب: 36]. وينبغي أن يتلقى ذلك بانشراح الصدر والرضا والتسليم.

ولئن ضاقت أموالنا أن تسع الناس فلنسعهم بأخلاقنا " إنَّكم لن تَسَعُوا الناسَ بأموالِكم، ولكن يَسَعُهم منكم بسطُ الوجهِ وحسنُ الخُلُقِ" فتح الباري لابن حجر إسناده حسن.

ويح المفلسين لا من الدرهم والدينار، ولكن من رصيد الأخلاق، قال –عليه الصلاة والسلام– : ولكن "المُفْلِسَ مِن أُمَّتي يَأْتي يَومَ القِيامَةِ بصَلاةٍ، وصِيامٍ، وزَكاةٍ، ويَأْتي قدْ شَتَمَ هذا، وقَذَفَ هذا، وأَكَلَ مالَ هذا، وسَفَكَ دَمَ هذا، وضَرَبَ هذا، فيُعْطَى هذا مِن حَسَناتِهِ، وهذا مِن حَسَناتِهِ، فإنْ فَنِيَتْ حَسَناتُهُ قَبْلَ أنْ يُقْضَى ما عليه أُخِذَ مِن خَطاياهُمْ فَطُرِحَتْ عليه، ثُمَّ طُرِحَ في النَّارِ" صحيح مسلم.

إن الخلق في منابع الإسلام الأولى –من كتاب وسنة– وهو الدين كله وهو الدنيا كلها؛ فإن نقصت أمة حظاً من رفعة في صلتها بالله، أو في مكانتها بين الناس فبقدر نقصان فضائلها وانهمام خلقها.

إن الأخلاق عماد الأمم، وهي سبب مهم في تماسك الدول وبقائها.

وإنما الأممُ الأخلاقُ ما بقيت *** فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وعلى المسلمين أن يتنبهوا إلى قيمة الأخلاق في صراعهم الحضاري مع الأمم الأخرى، وهل تستطيع أمة أن تثبت وجودها إذا أضاعت مقومات شخصيتها؟ وانهارت أخلاقها؟

ولا غرابة أن تنحى الدول الكبرى منحى جديداً في حرب القيم والأخلاق في سبيل القضاء على خصومها، وذلك أن هذا النوع من الحرب أكثر أثراً وأقل خسارة من الحروب المادية.

وعلى كل مسلم أن يتصور أنه كلما ضعف في انتمائه لدينه، وتمسكه بأخلاقه فإنما يقلل بسلوكه هذا من جنود المسلمين، ويزرع عدواً في بلاد المسلمين، وإن فساد الأخلاق طريق لانتهاك الأعراض، وضياع الأموال، وقتل الأنفس بغير حق، وفي حسن الأخلاق ضمان –بإذن الله– للأمن، وانتشار الخير، وحصول الرخاء.

اللهم ألهمنا رشدنا، وأصلح أحوالنا، اللهم وكما حسنت خلقنا فحسن خلقنا.

المراجع:

❶المراجع: الأربعين النووية شرح الشيخ ابن عثيمين رحمه الله بتصرف.

❷ شرح حديث: البر حسن الخلق: عبد العال سعد الشليّه

❸ خطبة عن حديث: (الْبِرُّ: حُسْنُ الْخُلُقِ) حامد ابراهيم.

❹في فضل حسن الخلق: عبد الله بن علي الطريف.

❺الأخلاق الفاضلة: سليمان بن حمد العودة.